

## الظاهراتية والمقاربة التأويلية

شهيرة زرناجي  
جامعة محمد خيضر - بسكرة  
07000، الجزائر  
chahira.zernadji@univ-biskra.dz

فوزية دندوقة  
جامعة محمد خيضر - بسكرة  
07000، الجزائر  
fz.dendouga@univ-biskra.dz

### المستخلص

شاع مفهوم التأويل في الدراسات الحديثة وانتشر، وعرف رواجاً كبيراً جعله المنهج الأكثر أهمية في أيدي النقاد والمحللين المعاصرين، وشاع معه الاهتمام بالظاهرة، كل ظاهرة كونية، حتى غدت الفينومينولوجيا التأويلية هي منهج الكشف عن الأشياء كما هي، لا كما نريدها، ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لتوضيح الأسس الفينومينولوجية، وعلاقتها بالنظرية التأويلية، وذلك بعرض المنهجين كل على حده، ثم عرض أوجه الالتقاء التي تجمعهما.

الكلمات المفتاحية: الظاهراتية، التأويل، اللغة.

## Phenomenology and the hermeneutical approach

**FOUZIA Dendouga<sup>1</sup>**

Mohamed Khaider University - Biskra  
07000, Algeria

**CHAHIRA Zernadji<sup>2</sup>**

Mohamed Khaider University - Biskra  
07000, Algeria

### ABSTRACT

The concept of hermeneutics became popular in modern studies and spread, and became very popular, which made it the most important method in the hands of contemporary critics and analysts, and the interest in the phenomenon spread with it, every cosmic phenomenon, until the hermeneutic phenomenology became the method of revealing things as they are, not as we want them, and from this standpoint came This study is to clarify the phenomenological foundations, and their relationship to the hermeneutical theory, by presenting the two approaches separately, and then showing the convergence between them.

**Keywords:** phenomenology, hermeneutics, language.

## المقدمة

لقد حدد ادموند هوسرل (Husserl) الأسس التي تقوم عليها أفكاره الهامة، فاستطاع أن يضع المنهج الظاهراتي الذي يقارب مشكلة المعرفة والكيونة بطريقة جديدة، ورغم ذلك ظلت هذه المقاربة إلى الآن من أكثر مناهج العلوم الاجتماعية تعقيدا على الإطلاق، وليس التأويل كمفهوم شائك وشائع في الدراسات الحديثة أقل تعقيدا وصعوبة، حيث مر بمراحل تطويرية عديدة من حيث الأسس والأهداف، وأبرز هذه التحولات ما عرفته التأويلية مع هايدغر رجل المرحلة الجديدة في التأويل، حيث يصف مشروع الفلسفي بأنه هرمينوطيقا الكينونة، فلم يعد التأويل فهما للنصوص، بل فهم للكون ذاته، وذلك بالانتقال من التأويل اللغوي إلى التأويل الظاهراتي، تأسيسا لفينومينولوجيا مطعمة بالهرمينوطيقا (هايدغر، 2015، ص10).

من أجل ذلك جاء هذا المقال لكشف العلاقة بين الظاهراتية والتأويل، هذين المفهومين الرائجين في الفكر الأدبي الحديث وراجا كبيرا، انطلاقا من عرض آليات التحليل الفينومينولوجي الذي يعمل على دلالة اللغة ومعناها بعدها جوهر الظاهرة اللغوية، فيقدم لنا وصفا لمعنى شيء ما، وصولا إلى ما يقوم به المؤول من تأسيس للمعنى قصد الإمساك بالبنيات المتسامية، ولولوج دواخل وعي الكاتب، والغوص بشكل حاسم في عالم العمل الأدبي، وإعادة إنتاج الدلالة بدلا من البحث عنها، ليصبح العمل الأدبي طرفا في عملية الحوار، بدل أن يكون وسيطا يربط بين طرفين متحاورين.

ورغبة في تحقيق هذه الأهداف حددنا الإشكالية الرئيسية لهذه الدراسة على افتراض مسبق يؤسس لعلاقة منهجية بين علمين أو منهجين سائدين في العلوم الإنسانية، ويهدف للكشف عن المفهومين، وعا يجمعهما من علاقات، موضحين نقاط الاختلاف والانتلاف، فما الذي يجمع الفينومينولوجيا بالهرمينوطيقا، وما الحدود الفاصلة بينهما؟ وقد قُدمت في هذا المجال دراسات عديدة تحاول توضيح التصور الفكري الذي تقوم عليه الفينومينولوجيا التأويلية ومن أبرز هذه الدراسات نذكر:

- الفينومينولوجيا التأويلية عند هايدغر، لأحمد معاريف، مقال منشور بمجلة لوغوس (الجزائر)، المجلد3، العدد 3، السنة 2015.

- الهرمينوطيقا من البعد الفينومينولوجي إلى الانعطاف الأنطولوجي، لنصر الدين شنوف، مقال منشور بمجلة التكوين (الجزائر)، المجلد 9، العدد1، السنة 2017.

- الفينومينولوجيا بوصفها تأويلا، لفاطمة الزهراء فقير، مقال منشور بمجلة الحوار الثقافي (الجزائر)، المجلد7، العدد1، السنة 2018.

وغير هذه الدراسات في حقيقة الأمر كثير، اخترنا آخرها، ولئن اتفقت جميعها مع ما سنقدمه في الأهداف العامة إلا أن بينها فرقا جوهريا يكمن في أنها تركز على الفينومينولوجيا الهرمينوطيقية، في حين ركزت دراستنا على الفينومينولوجيا والهرمينوطيقا كمنهجين متميزين بحثا عما بينهما من نقاط اختلاف وانتلاف.

## مفهوم الظاهراتية

الظاهرة هي الطريقة التي يمكث فيها شيء ما موضوعيا، حيث هذا الشيء حاضر انطلاقا من نفسه، احدى الظاهرة إذا ما يظهر بوصفه هو نفسه، لا ممثلا بطريقة أو أخرى، ولا في تقدير غير مباشر، وليس معاد البناء بشكل ما (هايدغر، 2015، ص121).

ومن هذا المعنى الذي تحمله الظاهرة ظهر مصطلح الظاهراتية أو الفينومينولوجيا (Phénoménologie) وهو علم الظواهر، استعمل في بدايته في مجال علم النفس ليبدل على الظواهر النفسية المختلفة كالرغبة والإحساس والإدراك... وليبدل أيضا على مظاهر الوعي في محتواه النفسي، والقائمة على ملاحظة ووصف الظاهرة كما هي معطاة، قصد تحليلها، وتحديد خصائصها، وفهمها على وجه الخصوص (شوقي الزين، 2002، ص48). وتختلف غاية الظاهراتية عن التجريد تمام الاختلاف؛ فهي العودة إلى الملموس، إلى الأرض الصلبة، كما أقر ذلك شعارها المشهور: العودة إلى الأشياء في ذاتها (ايجلتون، 1995، ص 88).

وقد ورد في الموسوعة الفلسفية أن الظاهراتية نظرية في المعرفة تقوم على أساس مسلمة بأن الأحاسيس وحدها هي الموضوع المباشر للمعرفة، و تفضي الظاهراتية المتطرفة إلى مثالية مطلقة، فالعالم (مجمل من الأفكار) أو (مركبات الأحاسيس)... أما الظاهراتية المعتدلة -التي تعرف بوجود الأشياء كما تتبدى في الأحاسيس- فإنها تفضي إما إلى مادية غير متماسكة تعتبر الموضوعات أشياء مادية، أو إلى اللادرية الكانطية إذا كانت تنظر إلى الموضوعات على أنها (أشياء في ذاتها) غير قابلة لأن تعرف، وتتخذ الظاهراتية في الوضعية المعاصرة شكلا لغويا، حيث ترتد أطروحتها الرئيسية إلى القول بإمكانية التعبير عن الخبرة في لغة شينية أو ظواهرية (روزنتال، 1981، ص288).

ويقول بورس (C. S. Peirce) إن الظاهراتية وصف للظواهر، ككلية جماعية لكل ما هو حاضر في الذهن بطريقة معينة، وبأي معنى، دون اعتبار ما إذا كان هذا مناسباً لشيء واقعي أم لا (Peirce ; 1978, p67)، وهي بهذا الوصف تحديد لبنية الظواهر، وشروطها العامة، بمعنى مشكل الظهور أو الانبثاق الذي يتصل لأول وهلة اتصالا مباشرا بالوعي، وهكذا يكون أول التقاء للوعي الذي أثارته ظاهرة معينة هو صلب ما تحاول الظاهراتية معالجته؛ إنها تعنى بأول وميض يثير انتباه البصر إليه، لكن هذه الإثارة أو الانتباه لا يبقى في محيط الانطباعات و الانفعالات السيكلوجية، بل ترتقي في مضمونها الفلسفي-الأنطولوجي إلى فضاء الماهيات قصد رصد ماهية الظاهرة التي تتجلى للوعي (روزنتال، 1981، ص 288)، و خلاصة لما سبق ذكره إن الفينومينولوجيا هي المنهج الذي يعنى بظواهر الوعي، أي ظهور موضوعات وأشياء العالم الخارجي في وعي الإنسان، وبذلك فهي دراسة الوعي بالظواهر وطريقة إدراكه لها، وكيفية حضور هذه الظواهر في خبرته.

## اتجاهات المنهج

اتجاهات المنهج الظاهراتي ثلاثة، تتمثل في (شوقي الزين، 2002، ص48، 49):  
- الظاهراتية النقدية: تسعى إلى تبيان الشروط الممكنة للموضوعية، توطرها بنية الذات و التي تحدد بالمقابل حدود المعرفة التي تجد نفسها في مواجهة فكر المطلق.

- ظاهراتية المظاهر: يحددها مراتب ظهور الكائن ومساره الأنطولوجي نحو المعرفة المطلقة.
- ظاهراتية التأسيس: يبحث هذا النوع من الظاهراتية عن قاعدة أو دعامة تنبثق من خلالها، أو تتأسس بموجبها، أو ترى الوجود على إثرها كل ظاهرة معينة.

### عناصر التحليل الفينومينولوجي

جعل هوسرل عناصر التحليل الفينومينولوجي ثلاثة هي: تعليق الحكم والبناء والإيضاح ورغم أن كثيرا من الدارسين من يكتفي بالعنصرين الأول والثاني، إلا أن العنصر الأخير في الحقيقة هو خطوة مهمة وتالية لما يسبقه من خطوات وعناصر.

- تعليق الحكم يعني وضع العالم بين قوسين أي عدم الحديث عن الظاهرة المادية وإزاحتها جانبا، وإخراجها من موضع الاهتمام، وعدم التعرض لها، أو إصدار حكم عليها.

- البناء حيث يظهر الشعور كقصد متبادل مكون من قالب ومضمون وبذلك ينتهي هذا التعارض التقليدي بين الذات والموضوع.

- منهج الإيضاح: أو توضيح الصلة بين الفينومينولوجيا والانطولوجيا، وبينها وبينها وبين علم النفس، وذلك لوجود ثلاث مناطق متداخلة: النفس، والبدن، والشيء، فالنفس موضوع الفينومينولوجيا والبدن موضوع علم النفس، والشيء موضوع الانطولوجيا، وهي المناطق الثلاث التي عرضها هوسرل في نظرية البناء (حنفي، 2004، صفحة 364 وما بعدها).

### هدف المنهج

حدد المنشغلون بهذه الفلسفة هدفها ومسعاها قائلين إنها تسعى إلى إقامة علم كلي، وقبلي، تنطوي تحته كل العلوم الأخرى التي تعتبر بالنسبة إليه جزئية، أو فرعية (غيو، 1999، ص199)، وهي بهذا المفهوم تسعى إلى إزالة سمة الاستقلالية عن باقي العلوم والمعارف، فتكون لها جميعاً الرافد الأول والأساس، وذلك لأن الظواهريين ينشغلون بدراسة الظواهر، كل الظواهر، دراسة وصفية خالصة، وهم في دراستهم هذه لا يركزون جهدهم على ظاهرة أدبية، دون علمية، أو تاريخية دون فلسفية...؛ لأن لكل ظاهرة في هذا الوجود تأثيرها الخاص.

لقد جاء المنهج الظاهراتي كوسيلة لمعالجة الأزمة التي تستلزم العودة إلى علم شامل يعمل على حل المشكلات الإنسانية و الفلسفية، ففي سياق الأزمة الأيديولوجية الشاملة التي عرفتها أوروبا إثر الحرب العالمية الأولى سعى الفيلسوف الألماني ادmond هوسرل إلى وضع منهج فلسفي يعبر اليقين المطلق لحضارة منهاره، فكتب في مؤلفه (the crisis of the european sciences) قائلا: "كان الأمر اختيارا بين اللاعقلانية المتوحشة من ناحية، وبين ميلاد روحاني جديد من خلال علم روعي مكثف بذاته اكتفاء مطلقا من ناحية ثانية" (ابجلتون، 1995، ص88).

### مفهوم النظرية التأويلية (الهرمينوطيقا)

### المصطلح والمفهوم

تسبب الغموض والتعقيد اللذين خيما على بعض النصوص القديمة في تشويش ذهن القارئ إلى انزياح مدلول الهرمينوطيقا ليعني التوضيح، مما جعلها متطابقة مع فن التفسير، وقد حاول الرواقيون إيجاد مخرج من هذا باعتماد تأويلات تربط الآلهة بالحقول المعرفية السائدة عندهم، في فارتبطت في الأخلاق بالفضائل، وفي علم النفس بالملكات، وفي الطبيعيات بالنار، والماء، والهواء، والتربة، وفي التاريخ ربطوها بأبطال بشريين رفعوا فوق البشر إلى مصاف الآلهة، وهنا تناقض موقف الرواقيين مع موقف الأبيقوريين الذين كانوا يرون في الآلهة مجرد ظواهر مادية مشتركة ومبتذلة، أو بشر عاديين. فاعتمد فلاسفة الإغريق على آلية الإنزياح الدلالي أو المجاز كحل لمشكل التناقضات الواسعة في قراءة النصوص الشعرية لهوميروس (Homère) وهسيوديس (Hsaiodes)، وقد استعملت الهرمينوطيقا عندهم بمعنيين مختلفين: الأول منها يعني التأويل (Hermeneuein)، والثاني يعني التفسير (Interpretation).

يتضح مما سبق أن الهرمينوطيقا قد تطورت في علاقتها بمجالات معرفية أخرى فنشأ ما يسمى بهرمينوطيقا الكتاب المقدس (إيكو، دت، صفحة 265)، والهرمينوطيقا القانونية، والهرمينوطيقا الفيلولوجية (سلدن، 2006، صفحة 399، 400).

ورغم تعدد المجالات المعرفية التي ارتبطت بها التأويلية إلا أنها وبوجه عام اتجاه في التفسير، ولا يكون هذا التفسير ممكنا إلا من خلال الفهم والحوار (بوشعير، 2011، ص125)، وإذا كان معنى (herméneutique) قبل القرن التاسع عشر مقتصرًا على تفسير الكتب المقدسة، ثم متطابقًا مع التفسير النصي على أنه عملية تقود إلى معنى صحيح واحد، وطرق الوصول إلى ذلك المعنى هي بشكل رئيس تلك التي تنادي بها نظرية فقه اللغة التاريخي الكلاسيكية، اعتمادًا على الكلمات، والإحاطة بالأحداث التاريخية المؤثرة في استخدامها، بالإضافة إلى قصد المؤلف، فقد اتسع مجالها خلال القرن التاسع عشر، ليشمل قضية التفسير النصي في عمومها (عبد المطلب، 2007، ص32).

ثم ارتبط المصطلح في القرن العشرين بأمور فلسفية أكثر عمومية، و بدلا من تأسيس قواعد لتفسير المادة المكتوبة، فقد ركزت النظريات الهرمينوطيقية للقرن العشرين على الفهم بوصفه أسلوبا أساسيا لوجودنا في العالم (سلدن، 2006، ص39).

فتأويل النص التاريخي والفني أو حتى الفلسفي لا يراد منه المتعة الجمالية، الاستيقية، بل تعني تجربة تلقي العمل بدون أن ننفصل عن وعينا العادي، لندخل دائرة الوعي الفني الذي نحتكم إليه، إن معضلة الفهم إذا حسب عالم الهرمينوطيقا هي معضلة وجودية، فبحثنا عن الحقيقة المخفية وراء السطور ليس لأجل المتعة، بل هي مشاركة وجودية.

أما في الفكر الحديث قد اتسع مفهوم الهرمينوطيقا في تطبيقاته، حيث صار مجالًا لعمليات التأويل المعرفية في العلوم الإنسانية، كالتاريخ وعلمي الاجتماع والانثروبولوجيا، وعلم الجمال، والنقد الأدبي، والفلكلور، لقد صارت التأويلية جوهر ولب نظرية المعرفة (حامد أبو زيد، 2000، ص 167).

يمكننا إذا أن نصف الهرمينوطيقا بأنها تنمية النظريات ودراساتها، لتفسير وفهم النصوص، وهي في الدراسات الدينية، تشير إلى دراسة تفسير النصوص الدينية. وهي وصف للجهود الفلسفية والتحليلية التي تهتم بمشكلات

الفهم و التأويل. وتقوم الهرمينوطيقا على فلسفة التعمق خلف ما هو ظاهر من تعبيرات وعلامات ورموز، للكشف عن المعاني الكامنة والجوانب غير المتعينة من الخبرة أو التجربة (أبو زيد، 1981، ص148).

### شروط التأويل

للوصول إلى المعاني الخفية والدلالات الباطنية التي يسعى المحلل والقارئ المعاصر إلى كشفها يشترط في القراءة التأويلية جملة من العناصر نلخصها في الفرضية، والمقصدية، والسياق والدائرة الهرمينوطيقية، ثم تأويل النص لا استعماله (المتقن، 2004، ص35 وما بعدها)، وفيما يلي تفصيل ذلك:

- الافتراض المسبق، أو الفرضية: فلكل خطاب رصيد من الافتراضات المسبقة المستمدة من المعرفة العامة، وسياق الحال، والجزء المكتمل من الخطاب ذاته، فلدَى كل طرف من أطراف الخطاب، رصيد من الافتراضات المسبقة، وهذه الافتراضات في تزايد مع تقدم عملية الخطاب، وضمن رصيد الافتراضات المسبقة المصاحبة لأي خطاب، توجد مجموعة من المسلمات الخطابية، التي يستند إليها القارئ في تأويل النص (براون ويول، 1997، ص96، 97).

- القصديّة: التي تجعل النص موثلاً تقاطعات بين المرسل والبنية النصية وملتقي الخطاب، فلم يعد سائغاً النظر إلى النص في ذاته، كما فعلت التصورات الشكلانية، إلا من قبيل بناء النماذج، وتسهيل عملية التصنيف، إذ أصبح النص عبارة عن أفعال كلامية منجزة من المؤلف، يقصد بها أنماطاً من تأثير الملتقي. ولهذا أصبحت مقاصد المتكلم مؤشرات حاسمة في عملية التأويل، و إلغاؤها إلغاء لجزء معتبر من معمار المعنى، إن لم يكن إعداماً مطلقاً له (تاج الدين، 1998، ص25)، وهو ما جعل غادامير (Gadamer) يقر بأن مهمة الهرمينوطيقا هي الكشف عن شيء النص غير المحدود، لا عن نفسية المؤلف؛ لأن هذا الشيء هو المرجعية بالنسبة للمعنى، وهو ما يمكننا من الكشف عن مقصديته وعن قيمة الحقيقة فيه (بول ريكور، 2001، ص41).

- السياق: وأساس القراءة الصحيحة (الغذامي، 1998، ص31)، فقد أصبحت علاقته بالنص قطب الرحي في التحول المنهجي الذي تعرفه النظرية اللسانية المعاصرة في توسيع مجالها الإجرائي، لتشمل حقولاً معرفية مختلفة، لما يلعبه السياق من دور فعال في ترقية آليات تحليل الخطاب، وتمثل مضامينه تفسيراً وتأييلاً؛ لارتباطه بمعطيات معرفية ومنهجية، في الوقت نفسه توظّر مسار احتواء المجال الإدراكي للنص وتفعله، باستثمار حصيلة ثرية لمجالات متعاقبة في تاريخ قراءة النص (حساني، 2004، ص64، 70).

- الدائرة التأويلية: فهي الأداة المنهجية للنظر إلى النص في كليته وعلاقتها بمختلف الأجزاء، كما تتناول الأجزاء في علاقتها بهذا الكل (نصر، 1996، ص80)، ففهم النص لا يتأتى للمؤول إلا إذا تمكن من فهم أجزائه، و فهم هذه الأخيرة أيضا لا يتحقق إلا بفهم الكل. وهنا يتحقق الشرط الأخر للقراءة التأويلية، وهو تأويل النص لا استعماله؛ وذلك يعني أن تكون عملية الفهم عبر النص وانطلاقاً منه، فنتركه ينطق بما يحمل (Bouveresse, 1991, P26)، وتحدد قيمة هذا العنصر بالنظر إلى أولئك الذين يتأولون النصوص خدمة لتوجهاتهم الخاصة، أو لمذاهبهم التي ينتمون إليها.

### التحليل الظاهراتي والتأويل

إذا حاولنا تحديد علاقة التأويل بالفينومينولوجيا نوجب علينا التعرض لمكانة مؤسسها الذي وضع الخطوط الرئيسية لها، بوصفها مشروعاً معرفياً وكلياً ينفتح على آفاق تأويلية كبيرة، حيث ترتبط بالتأويل عضويًا ووظيفيًا، مثلما يرتبط الأنثروبولوجي بالأنطولوجي، والمنطقي بالشاعري (شوقي الزين، 2002، ص 53)، وهذا الارتباط الوثيق بين المنهجين يؤكد أهمية الوصف الظاهراتي في تحليل النص الأدبي، نظرًا لما يوفره من عودة إلى الأصل؛ إلى ماهيته وجوهره. فما يجمع المنهجين انتماء متبادل، يجعل كلا منهما يقوم على افتراض الآخر (بول ريكور، 2001، ص 31).

لقد تبوأ هوسرل موقعه الفلسفي عن طريق معارضته لمدرستين فكريتين ساندتين، هما الطبيعانية التي تزعم أن كل الظواهر جزء من الطبيعة، والنفسانية التي تحاول وضع كل الأنظمة المعيارية تحت طائلة قوانينه، كالمناطق مثلًا (سلدن، 2006، ص 442، 443).

وتعتبر نظرية القصدية الركيزة الأساس للظاهراتية، كما تعد أيضًا من الركائز الأساسية للنظرية التأويلية، وقمنا بينا، وهي تعني ذلك التوجه الذهني الذي يستهدف به الشعور الإنساني موضوعاته بالبحث، فهي الرابط القوي الذي يجمع بين الشعور وموضوعاته (غيوه، ص 200، 201)، والصفة المميزة للعلاقة بين الذات والموضوع، وبين الفكر والوجود، وهي علاقة أساسية لا تنفصل فيها الذات عن الموضوع، ولا يمكن لأي واحد منهما أن يصبح قادرًا للإدراك الحقيقي دون الآخر (بونففة، 2005، ص 37، 38). إنها الرابط العنصر الأساس في أي عمل أدبي، أو إنتاج فني، حتى أنها لم تعد مجرد مدلولات يرمي بها المبدع لغيره، لقد صارت من الأهمية بما يجعلها تتعدد وتختلف فهي قصدية المبدع، وقصدية القارئ، وقصدية الوسيط أو القناة. أما حجر الأساس الآخر في فلسفة هوسرل، فهو تصويره للحدس؛ لأنه يتيح لنا أن ندرك الماهيات، وليس فقط الخصائص الأمبيريقية، ولكي نطبق الحدس الظاهراتي، ونصل إلى معرفة أصيلة وحقيقية علينا إجراء سلسلة من الاختزالات، ومن أجل الاختزال الظاهراتي يستخدم هوسرل مفهوم الإيبوخية (epoche)، ويعني التوقف حرفياً، أو تسليط الوصف على أشياء بعينها تستقطب ملاحظتنا، وما عداها يبقى بين قوسين، ويتكون هذا المفهوم من وجوه أربعة:

التجنيب التاريخي: استبعاد الافتراضات المسبقة.

التجنيب الوجودي: استبعاد الشيء الحدسي والأنا التي تحدسه.

الاختزال الأيديتيكي: استبعاد كل شيء فردي للانتقال من الماهيات الخاصة إلى العامة.

الاختزال الفينومينولوجي: استبعاد كل ما هو خارج عن الظاهرة أو ما يتجاوزها (سلدن، 2006، ص 444، 445).

وسنحاول فيما يلي التطرق إلى الحقول المعرفية والمنهجية التي يشترك فيها المنهجان الظاهراتي والهرمينوطيقي من خلال التطرق إلى المفاهيم التي يلتقيان فيها (شوقي الزين، 1999، ص 10 وما بعدها).

الأصل والعودة إلى الذات



الفكر الظاهراتي هو فكر التأسيس الذي يعبر عن العودة إلى الشيء نفسه، إلى ماهيته وجوهره، والبحث عن الأصل هو أن يكون الوعي (مندفعاً نحو...) أو (مندفعاً إلى الأمام نحو...)، و (الاندفاع نحو) هو جملة الكمونات والممكنات التي تتكشف للوجود في الحاضر ولا تتكشف (هنا) و(الآن)، إلا على ضوء التحديدات التي تلقتها في ماضيها. أي العودة إلى التراث كعنصر ضروري، لانكشاف الشيء نفسه كماهية يدركها الوعي، وذلك على حد قول غادامير: "ينبغي لفن التأويل أن ينطلق من مسألة أن الفهم هو الوجود في علاقة مع الشيء نفسه الذي يظهر عبر ومع التراث أين يمكن للشيء الاتصال بي" (غادامير، 1999، ص19).

### التجربة المعيشة في صلب الحاضر الحي

إن الحاضر سيلان لا نهائي، وتدفق دائم للحظات التجارب المعيشة المنخرطة في نظام الزمانية، يجعل الوعي يتصل اتصالاً مباشراً بموضوعه (هنا) و(الآن) ويدرك ذاته كوعي خالص، ولا شك أن للحياة أهميتها في فهم الذات؛ على اعتبار أن هذه الأخيرة تدرك تجاربها المعيشة، وممارساتها الخاصة بناء على إدراكها لحياتها كوحدة وبنية متناسقة الأبعاد، ومرتبطة الأجزاء، وتدرك شمولية هذه الحياة في ضوء التجارب المعيشة التي يتوقف عليها أن تعين موضوعها بتأويله بنفسه (ريكور، 2001، ص57).

### فهم الذات وتجربة الآخر

تذهب الظاهراتية إلى أن كل إدراك للآخر لا بد أن يمر بتجربة الجسد، وهي قاعدة تجعل من تجربة الحياة في صورتها الواقعية شرط إمكان لمختلف التجارب المعيشة والممارسات؛ لأن كل معرفة تبتدئ بالتجربة، ولأن الجسد هو المساحة الطوبولوجية (Topologique) والأنطولوجية (Ontologique) التي تتحرك فيها وتنتقل عبرها جملة التجارب المعيشة والممارسات والسلوكات، باعتباره حاملاً للإدراك الحسي عبر الأعضاء التي تتصل اتصالاً مباشراً بالعالم الخارجي، ولالإدراك الحدسي الذي يجعل الوعي الخالص والمتعالي يدرك موضوعه مباشرة، فالوعي لا يستغني عما يفيد به الإدراك الحسي من إحساسات وانطباعات حسية، ولكنه يستقل بتعالیه وإدراكه الحدسي في فهم أشياء العالم عبر القصدية المتضمنة فيه عند هوسرل أو عبر اندفاعه عند هيدغر (Heidegger).

يرى المنهج الظاهراتي أن النص الأدبي مستويات عديدة غير متجانسة، حسب الفيلسوف الظاهراتي رومان إنجاردن (R.Ingarden) هذه المستويات هي الصوتية، والدلالية، والبنوية... الخ. وعلى هذا فإن النص الأدبي لا تمكن قراءته إلا عبر مجموعة من التحليلات الأسلوبية التي تحلل هذه المستويات جميعاً، بالإضافة إلى قراءة بنوية أخيرة شاملة تُعنى بإبراز العلاقات الماثلة بين هذه المستويات جميعاً (عزام، 2001، ص15). وهنا يفترق التحليل الظاهراتي عن التحليل النفسي، والتحليل المنطقي للغة، فالتحليل النفسي يروم الوقوف على ما يجري في النفس، والمنطقي يأخذ الألفاظ باعتبارها أطرافاً في القضايا، ويتعاطى المعاني بقدر ما توصل إلى المجهول، أما التحليل الظاهراتي، فيعمل على دلالة اللغة ومعناها، إذ الدلالة هي جوهر الظاهرة اللغوية، وبدونها لا يتأتى للألفاظ والتراكيب وظيفة وفاعلية (لطي، 1997، ص47).

وهنا أيضاً يفترق المنهجان التأويلي والظاهراتي، فإذا كان الوصف الظاهراتي وصفاً لمعنى شيء ما، يكون التأويل الظاهراتي فعلاً لإنتاج المعنى أو لتأسيسه، وينتمي إليه أحد جوانب المعنى الذي يسمى (المرجع) أي

التوجه القصدي نحو عالم معين، والتوجه الانعكاسي نحو ذات معينة، لكن فعل التأويل الظاهراتي لا يتجه إلى المعنى أو المرجع، ولا يرتد منهما، فهو فعالية الفهم التي توفر المعنى، غير أن المعنى نفسه ليس بؤرة، ولا هوية، ولا وحدة مفردة؛ إنه هنا ممارسة وفعالية وتفصيل لحقل ما. أما التأويل فليس تقريراً، بل حوار تغذيه مجموعة من التساؤلات، فيسأل القارئ النص وهو بين يديه في الوقت الذي يسمح فيه للنص أن يرد عليه بسؤال أيضاً، وهو ليس فرض للذات، بل مجال للتخلي عنها. وبهذا المعنى الذي يكتسبه التأويل، والذي تحمّله الفينومينولوجيا الحديثة تصبح هذه الأخيرة منهجا بل فلسفة في المعنى تختص بصياغة صور الظواهر وتحميلها شتى المعاني والدلالات.

من ناحية أخرى فإن التأويل يرى أن لغة النص بحر واسع يختفي في أعماقه من المعاني ما لا يستطيع أحد البلوغ إليه دون قدرة على الغوص والبحث المكثف، في حين يرى النقد الظاهراتي أن لغة العمل الأدبي تفوق شيئا ما التعبير عن معانيه الداخلية، وهذه فكرة قديمة تعود إلى هوسرل الذي لم تحتل اللغة في ظاهراتيته إلا حيزا ضيقا. فضلا عن أن النقد الظاهراتي يهدف إلى قراءة محايدة شاملة للنص بعيدا عن المؤثرات الخارجية، قصد الإمساك بالبنيات المتسامية، ولوج دواخل وعي الكاتب، وسلاحه في ذلك التطهر من ميولاته الخاصة، والغوص بشكل حاسم في عالم العمل الأدبي، وإعادة إنتاج ما وجده هناك بشكل دقيق، وغير منحاز قدر الإمكان (إيجلتون، 1995، ص37). وبناء عليه اختزل النص نفسه في احتواء خالص لوعي المؤلف، لكن بعضا من الباحثين يرفض هذا النوع من التحليل؛ لأنه يعتبر النص وسيطا بين المؤلف والقارئ، بدلا من أن يكون طرفا في عملية الحوار.

وقد ركز هيدغر اهتمامه على معالجة مختلف ظواهر الفن واللغة وتحليل النصوص، في سياق اهتمامه بالفن والشعر في المرحلة التي تحول فيها من دراسة الوجود الإنساني إلى دراسة فكر الوجود؛ لأن الوجود الأول لا يتحقق إلا بتأويل النصوص التي تشهد عليه، وهكذا يحول هيدغر التأويلية من تحليل النصوص إلى تحليل الوجود، حيث تحل أنطولوجيا الفهم محل أبستمولوجيا التأويل، فظاهراتيته تجعل التأويل تابعا للفهم الذي يغطي كل إسقاط للمعنى (ريكور، 2001، ص 37). فالتأويل عنده محاولة لفهم الوجود، انطلاقا من البحث عن معنى الفهم في حد ذاته، وعن حقيقته، لا عن قواعد وأسس بنائه.

ورغم الاحتفاء بالظاهرة في النظرية التأويلية الحديثة ورغم ارتباط الهرمينوطيقا بالفينومينولوجيا في تأويلية هايدغر، إلا أن التوجه الهرمينوطيقي مع غادامير راجع خطاه، حيث عرفت التأويلية معه عودة البحث عن فهم النصوص الموروثة والتقاليد الثقافية (العيد، 2014، ص13)، فكان بذلك خلف هيدغر الأكثر شهرة في مجال الهرمينوطيقا، لهذا اعتبرت العودة إليه عودة إلى الأصول، وتحول آخر من فهم الوجود إلى فهم الموجود.

### الخاتمة

إن الفينومينولوجيا كمنهج فكري حديث ليست متاحة لكل راغب في التفسير أو التأويل، بل إنها في حقيقة الأمر أعقد من ذلك، لأنها ليست متاحة حتى للمتخصصين؛ وهذا باعتراف أكبر المنشغلين بها، وأكثر الخاضعين في مجالها شهرة، لأنها من أصعب النظريات التي توصل إليها العقل البشري، ولا يزال البحث في اتجاهاتها وأهدافها وآلياتها قائما على قدم وساق، وحسبنا في هذا المقام أن نقول إنه المنهج الذي لا يمكنه أن يؤسس ذاته

دون افتراض تأويلي، فلا يجب في أي حال من الأحوال إغفال النظر في العلاقات الممكنة بين الظاهرانية والتأويل.

ولأن البحث في الفينومينولوجيا لا يزال عصيا على الأذهان، ولا تزال ملامحه غامضة خاصة في صلته بالهرمينوطيقا، هذا المجال المعرفي الواسع الذي انتقلت المفاهيم فيه من مجرد قراءة النص المقدس إلى قراءة النص الأدبي، والتاريخي، ثم تحولت إلى قراءة الوجود بأسره، وهو ما يجعل المصطلحات زبئقية غير متاحة للإمساك دائما، فإننا ندعو الباحثين في العلوم الإنسانية إلى الالتفات إلى الفينومينولوجيا الهرمينوطيقية بحثا ودراسة وتحليلا وتفسيرا... فمن شأنها أن تفتح آفاقا واسعة للدرس النقدي الحديث.

### المصادر

- أبو زيد، نصر حامد (2000)، الخطاب و التأويل، ط1، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي.
- أبو زيد، نصر حامد (1981)، الهرمينوطيقا ومعضلة تفسير النص، مجلة فصول، المجلد الأول، ع3.
- ايجلتون، تيري (1995)، الظاهرانية و الهرمينوطيقا ونظرية التلقي، ترجمة محمد خطابي، مجلة علامات، ع3.
- إيكو، أمبرتو (د، ت)، العلامة تحليل المفهوم و تاريخه، ترجمة سعيد بنكراد، ط1 المركز الثقافي العربي.
- بوشعير، عبد العزيز (2011)، غادامير من فهم الوجود إلى فهم الفهم، ط1، الجزائر، منشورات الاختلاف.
- بونففة، نادية (2005)، فلسفة ادموند هسرل- نظرية الرد الفينومينولوجي، (د ط)، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- تاج الدين، مصطفى (1998)، النص القرآني و مشكل التأويل، مجلة إسلامية المعرفة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ماليزيا، ع 14.
- براون و يول (1997)، تحليل الخطاب، ترجمة: محمد الزليطي ومنير التريكي، الرياض، (د ط)، جامعة الملك سعود.
- حساني، أحمد (2004)، السياق و التأويل من الإشكالية الفيلولوجية إلى الإشكالية اللسانية، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، العدد 395.
- روزنتال، ويودين (1981)، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ط4، بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر.
- ريكور، بول (2001)، من النص إلى الفعل، أبحاث التأويل، ترجمة محمد برادة، وحسان بورقية، (د ط)، مصر عين للدراسات و البحوث الإنسانية والاجتماعية.
- الزين، محمد شوقي (2002)، تأويلات وتفكيكات، فصول في الفكر العربي المعاصر، ط1، الدار البيضاء المركز الثقافي العربي.
- الزين، محمد شوقي (1999)، الفينومينولوجيا وفن التأويل، فكر و نقد، المغرب، ع 16.
- سلدن، رامن (2006)، من الشكلائية إلى ما بعد البنيوية، مراجعة وإشراف ماري تيريز عبد المسيح، موسوعة كمبريدج في النقد الأدبي، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، العدد 1045، المجلد 8.
- عبد المطلب، فؤاد (2007)، التأويل في الغرب- النشأة والمفهوم، مجلة الموقف الأدبي، العدد 440.

- عزام، محمد (2001)، النص الغائب، تجليات التناص في الشعر العربي، دمشق، من منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- العيد، معروف (2014)، الهرمينوطيقا، جدلية الأصل والانزياح، مقارنة معرفية ومنهجية بين تأويلية هانس جورج غادامير ونصر حامد أبو زيد، ط1، العراق، دار نيبور.
- حنفي حسن (2004)، فينومينولوجيا الدين عند هوسرل، ضمن كتاب تطور الفكر الديني الغربي، بيروت، دار الهادي.
- غادامير، هانز جورج (1999)، مدخل إلى أسس فن التأويل- التفكيك وفن التأويل، ترجمة محمد شوقي الزين، فكر ونقد، المغرب، ع 16.
- الغذامي، محمد (1998)، الخطيئة و التكفير، من البنيوية إلى التشريحية، ط4، الهيئة المصرية العامة للكتاب، غيوة، فريدة (1999)، أسس المنهج الظواهري عند آدموند هوسرل، مجلة التواصل، جامعة عنابة، العدد4.
- لطفي عبد البديع (1997)، التركيب اللغوي للأدب، بحث في فلسفة اللغة والاستطيقا، ط1، لونجمان، مكتبة لبنان، ناشرون، الشركة المصرية العالمية.
- هايدغر، مارتن (2015)، الانطولوجيا، هرمينوطيقا الواقعية، ترجمة عمارة الناصر، ط1، بيروت، منشورات دار الجمل.
- المتقن، محمد (2004)، في مفهومي القراءة و التأويل، عالم الفكر، ع2، م33، الكويت (أكتوبر- ديسمبر).
- نصر، عاطف جودة (1996)، النص الشعري و مشكلات التفسير، ط1، القاهرة، دار نوبار للطباعة.
- Bouveresse, Jacques (1991), Herméneutique et Linguistique, Editions de l'éclat, France.
- Peirce; Charles Sanders (1978) ; écrits sur le signe, Seuil, T ; G. Deledalle .